فلنتعصَّب ! ـ ٦ ـ

وقال صاحب سرٍّ (م) باشا : جاءني يوماً صَحَفيٌّ إنجليزيٌّ من هؤلاء الكتَّاب المتعصِّبين ؛ الَّذين تُطلقهم إنجلترا ، كما تُطلق مدافعَها ؛ غير أنَّ هذه للبارود ، والرَّصاص ، والقنابل ، وأولئك للكَذِب ، والتُّهم ، والمغالَطات .

وهو أذُنٌ، وعينٌ، ولسانٌ، وقَلَمٌ لجريدة إنجليزيَّةٍ كبيرةٍ ، معروفةٍ بِثقَلِ وطأتِها على الشَّرق ، والإسلام ؛ تُصْلحُ بإفسادٍ ، وتُداوِي الحمَّى بالطَّاعون ، وتعمل في نهضة الشَّرقيِّين واستقلالهِم ما يُشْبِهُ قطعَ ثَدْيِ الأمِّ وهو في شفَتَيْ رضيعِها المسكين .

ودخل عليَّ هذا الكاتبُ في السَّاعة ؛ التي خرج فيها من غرفتي صاحبُ جريدةٍ أسبوعيَّةٍ في مدينتنا ؛ كان قد نفخ الضِّفْدَع ؛ ليجعلَها ثوراً ، فحوَّلَ صحيفتَه إلى جريدةٍ يوميَّة ، وهو لا يجدُ مادَّتها ، ولا يستطيع أسبابَها ، إلا أنَّه كدأبِ النَّاس عندنا كان يحسبُ الكذِبَ في العمل سَهْلاً مَهْلاً[1] كالكذِب في القول ، فلم يَتَعاظمْه الأمرُ العظيم ، واقترض لعمله كلَّ ألفاظِ النَّجاح من اللُّغة .

وظنَّ عند نفسِه : أنَّه سيُخَوِّفُ بجريدته الكبراءَ ، والأعيانَ ، والمَياسيرَ حتَّى يَغْلبَ على جميعِهم ، ويُشْرِكَ أصابعَه مع أصابعهم في استخراج ما يحتاج إليه من جيوبهم ؛ فلم تعشْ جريدتُه إلا أيَّاماً ، وأتلف ما جمع ، ورهَن فيها دارَه التي لا يملك غيرَها ؛ وعلم آخراً : أنَّ الَّذي يكذبُ ، فيسمِّي الخروفَ جملاً ، لا يقبلُ منه أن يكذبَ على الكذب نفسِه ، فيزعمَ أنَّ الناقةَ هي التي نَتَجَتْ هذا الخروف . .

ولما انقلبت هذه الجريدةُ يوميَّة كان الباشا هو ملجأَ الرَّجل وَوَزَره[2] ، وكان لكلِّ يومٍ في الجريدة أخبارٌ عن الباشا لا تقعُ في الدُّنيا ، ولا تُجمع من الحوادث ، ولكن تقع في ذهن الكاتب ، وتُجمع من صناديق الحروف ؛ حتَّى قال لي الباشا مرَّةً : إنَّ اسمي قد أصبح موظفاً في هذه الجريدة لجمع الاشتراك . . .

وتحرَّى هذا الصَّحَفيُّ أن يستأذنَ يوماً على الباشا وفي مجلسه حَشْدٌ عظيم من

(١) هذا الاستعمال مما وضعناه نحن ، وليس في اللغة ، وهو من باب الإتباع ، كقولهم : حسن بسن ، وشيطان ليطان . . . إلخ .

(٢) « وزره » : الوَزَر : الجبل المنيع ، والملجأ يُعتصم به .

السَّراة ، والأعيان ، والعُمَد ، وكان جَمَعهم لأمرٍ ، فما هو إلا أن دخل الصَّحَفيُّ حتَّى ابتدره الباشا بهذا السُّؤال : يا أستاذ ! ما هي تلغرافات أوربة عن الحوادث الَّتي ستقع غداً . . . . ؟

فضجَّ المجلس بالضَّحك ، وفقدَ المسكين بهذه النُّكتة أربعين ديناراً كان يؤمِّل أن يخرجَ بها ، وأعلن الباشا في أظرف إعلانٍ ، وأبلغِه كذِبَ الرَّجلِ ، ونِفاقَه ، وإسفافه ، وأنَّه من رجال الصَّحافة المدوَّرَةِ تدويرَ الرَّغيف . . .

قال : ونظرتُ إلى الصَّحفي الإنجليزيِّ نظرةً أكْشِفُه بها ، فإذا أوَّلُ الفرقِ بينه وبين أمثالِه عندنا ـ شعورُه أن بلادَه قد ربَّتْه (للخارج) ، فهو عند نفسه كأنَّه إنجليزيٌّ مرَّتين ؛ ويأتي من ذلك إحساسُه بعزَّة المالِك ، وقوَّةِ المستعمرِ ، فلا يكونُ حيث يكونُ إلا في صراحةِ الأمرِ النَّافذِ ، أو غموضِ الحيلة المبهَمة ؛ ويستحكم بهذا ، وذاك طبعُه العمليُّ ، فهو بغريزته مُقاتِلٌ من مقاتِلةِ الفكر ، يلتمسُ مَيدانه بين القُوَى المتضاربةِ ، لا يبالي أن يكونَ فيه الموتُ ما دام فيه العمل ؛ وبهذا كلِّه تراه نافذَ البصيرةِ قائماً على سَواء الطَّريق ؛ لأنَّ الإنجليزيَّ الباطنَ فيه يُوجِّه الإنجليزيَّ الظَّاهرَ منه ، ويُسَانِدُه ؛ وفي أعماقِ الاثنين تجد إنجلترا ، وليس غيرَ إنجلترا .

ثُمَّ تفرَّستُ في الرَّجل أريد كُنْهَه ، وحقيقتَه ، فإذا له نفسٌ مفتوحةٌ مقْفَلة معاً ، كغُرَفِ الدَّار الواحدة ، يُفتح بعضُها لما فيه ؛ كيما يُرى ، ويُقْفَلُ بعضُها على ما فيه ؛ كيلا يُرى .

وله وجهٌ عمليٌّ يكاد يحاسِبُك على نظراتك إليه ؛ تدورُ في هذا الوجه عينانِ قد اعتادتا وزْنَ الأشياء والمعاني ؛ يتلألأ في هاتين العينين شعاعُ النَّفسِ القويَّة الممرَّنةِ ، قد نَفَتِ الثِّقةُ بها نصفَ هموم الحياة عن صاحبها ، تُمِدُّ هذه النَّفسَ طبيعةٌ مؤمنةٌ بأنَّ أكبرَ سرورها في أعمالها ، فواجبُها في الحياة أن تعملَ كلَّ ما يحسُنُ بها ، وكلَّ ما يحسُنُ منها .

لقد خُيِّل إليَّ ، وأنا أنظر إلى نفسية هذا الإنجليزيِّ : أنَّ كلمةَ الخيْبَةَ عند هؤلاء الإنجليز غيرُ كلمة الخيبة عندنا نحن الشَّرقيِّين ، فإنَّ خيبةَ النَّفس لا تتمُّ معانيها أبداً في النَّفسِ العاملةِ الدَّائبةِ ، الَّتي يُشعرها الواجبُ : أنَّه شيءٌ إلهيٌّ لا يَخيب ، وأنَّ ما يُرفضُ على هذه الأرض من العمل الطَّيب لا يُرفض في السَّماء .

وكأنَّ الرَّجلَ قد أدرك غرضي بملَكَته الصَّحافية الدَّقيقة ، فأجابني عن السُّؤال الَّذي لم أسأله ، وقال لي مبتدئاً : إنَّ أساسنا الشَّخصيةُ ، وحاسَّةُ الواجب ؛ وإنَّ فيكم أنتم كلَّ شيء إلا هذين ؛ فأخلاقُنا تَظهر دائماً في العمل ، وأخلاقكم تَظهر دائماً في الكلام الفارغ ؛ ونحن نطلب الحقيقة ، وأنتم تطلبون الألفاظ ، حتَّى إنَّه لو خَسِر المصريُّ ألفَ دينارٍ ، ثمَّ أعلن : أنَّها مئةٌ فقط ، وصدَّق النَّاسُ أنها مئةٌ ؛ لكان عند نفسه كأنَّه ربح تسعمئةٍ .

* * *

قال صاحب السر : واستأذنتُ له على الباشا ، فسهَّل ، ورحَّب ؛ ثمَّ هممتُ بالانصراف عنهما ، ولكن الإنجليزيَّ قال : يا باشا ! إنَّه قد تمكَّن في رُوْعي : أنَّ صاحبَ سرِّك هذا متعصبٌ دينيٌّ ، وقد علمت : أنَّه ابن فلانٍ القاضي الشَّرعيِّ ، فطربوشُه ابنُ العمامة ؛ ولقد كان ينظر إليَّ ، وكأنه يتأمَّلُ من أين يذبحُني .

فضحك الباشا ، وقال لي : يا فلان ! إنَّ هذا الكاتبَ من تلاميذ برناردشو ، فهو كأستاذه ، يجعل لكلِّ حقيقةٍ ذَنباً كذيلِ الهرِّ ، ثم يمسكُها منه ، فإذا هي تَعَضُّ ، وتتلوَّى .

والتفتَ بعد ذلك إلى الإنجليزي ، ثمَّ قال له : جاءني كتابك فإذا كنت تريد رأيي فيما تسمِّيه التعصُّب الدِّينيَّ عند المسلمين ، فعجيبٌ أن تضعوا أنتم الغلطةَ ، ثمَّ تسألونا نحن فيها ! إنَّك لتعلم أنَّ هذا التعصُّبَ الكذِبَ الذي أكثرتم الكلامَ فيه ، إنَّما هو لفظٌ من ألفاظ السِّياسة الأوربية ، أرسلتموه إلينا ؛ ليقاتِلَ لفظَ التعصُّب الحقيقي ؛ ومن قبل هذا اخترعتم لفظة (الأقلِّيات) ، وأجريتموها في لغتكم السِّياسية ، لتجعلوا بها لتعصُّبنا الوطنيِّ شكلاً آخر غيرَ شكلِه ، فتفسدوه علينا بهذه المادَّة المفسِدة ؛ وبذلك تَضربون اليدَ اليمنى من غير أن تَلمسوها ؛ إذ تضربونها بشلِّ اليد اليسرى .

إنَّ الإسلام في نفسه عدوٌّ شديدٌ على التعصُّب ؛ الذي تفهمونه ، فهو يقول لأهله في كتابه العزيز : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** ﴾ [النساء : ١٣٥] .

فإذا كان العدلُ في هذا الدِّين عدلاً صارِماً ، وحقّاً محضاً ، لا يميِّز بشيءٍ

ألبتَّة ، لا ذات النَّفس التي فيها اشتهاءُ الدَّم ، ولا أصلَها من الأبوين اللَّذين جاءت منهما وِراثةُ الدَّم ، ولا أطرافَها من الأقربين الَّذين يلتفُّون حول نَسَب الدَّم ؛ إذا كان هذا ، فأين في هذا العدلِ محلُّ الظُّلم ؟

لعلَّك تشير إلى هذه الرُّعونة التي تعرفها في الأغمار ، والأغفالِ من العامَّة ، فهذه ليست من أثرِ الدِّين ، بل هي أثرُ الجهلِ بالدِّين ؛ إنَّ هذا ليس تعصُّباً ، بل هو معنى من معاني الحَمِيَّة النَّفسية الخَرقاء لم تجدوا أنتم له لفظاً ، وكان أقربَ الألفاظ إليه عندكم هو التعصُّبُ ، فأطلقتموه عليه للمعنى الذي في نفسه ، والمعنى الذي في أنفسكم . ألا فاعلم : أنَّ إسلامَ العامَّة اليومَ هو كالدَّعوى المقبولة شكلاً ، والمرفوضة بعد ذلك .

قال الإنجليزي : ولكنَّ لهؤلاء العامَّة علماءَ دينيين يُدبِّرونهم من ورائهم ، وهم عندكم ورثَةُ النَّبيِّ ﷺ ؛ أي : منبعُ الفكرة ، وقوَّتُها .

قال الباشا : غيرَ أنَّ هؤلاء قد أصبحوا كلُّهم ، أو أكثرُهم لا يَنْدَسُّ فيهم عِرقٌ من تلك الوراثة ، وذلك هو الذي بلغ بنا ما ترى ؛ فالقوم إلا قليلاً منهم كالأسلاك الكهربائيَّة المعطَّلة : لا فيها سَلْبٌ ، ولا إيجاب ؛ ولو أنَّ هؤلاء العلماء كانت فيهم كهرباءُ النُّبوَّة ؛ لكَهْرَبوا الأمم الإسلاميَّةَ في أقطارها المختلفة . إذاً لقام في وجه الاستعمار الأوربيِّ أربعُمئة مليون مسلمٍ جَلْدٍ ، صارمٍ ، شديدٍ ، متظاهرين ، متعاونين ، قد أعدُّوا كلَّ ما استطاعوا من قوَّة العلم ، وقوَّة النَّفس ، وهم لو قَذَفَ كلٌّ منهم بحجرين ؛ لردموا البحر .

أتريد معنى التعصُّب في الإسلام ؟ إنَّه بعينه كتعصُّب كلِّ إنجليزيٍّ للأسطول ؛ فهو تشابُكُ المسلمين في أرجاء الأرض قاطبةً ، وأخذُهم بأسباب القوة إلى آخر الاستطاعة ؛ لدفع ظلمِ القوة بآخر ما في الاستطاعة .

وهو بذلك يعملُ عملين : استكمالُ الوجودِ الإسلاميِّ ، والدِّفاعُ عن كماله .

وإذا أنت ترجمتَ هذا إلى معناه السِّياسيِّ ؛ كان معناه إصرارَ جميع المسلمين على نوع الحياة ، وكرامتها ، لا على استمرار الحياة ، ووجودِها فقط . وذلك هو مبدؤكم أنتم أيها الإنجليز ! لا تقبلون إلا حياة السِّيادة ، والحكم ، والحرِّيَّةِ ، فأنتم مسلمون في هذا المبدأ ؛ لو عَدَلتم .

أليس من البلاء : أنَّ المسلمين اليومَ لا يَدْرُسُ بعضُهم بلادَ بعضٍ إلا على الخريطة . . . مع أنَّ الحجَّ لم يُشرَعْ في دينهم إلا لتعويدهم دراسةَ الأرضِ في الأرض نفسها لا في الورق ، ثمَّ ليكونَ من مبادئهم العمليَّةِ : أنَّ العالمَ مفتوحٌ ، لا مقفل ؟

إنَّ التعصُّبَ في حقيقته هو إعلانُ الأمَّةِ : أنَّها في طاعة الشَّريعة الكاملة ، وأنَّ لها الرُّوحَ الحادَّة ، لا البليدة ، وأنَّ أساسها في السياسة الاحترام الذَّاتيُّ لا تقبل غيرَه ، وأنَّ أفكارَها الاجتماعيَّةَ حقائق ثابتةٌ ، لا أشكالٌ نظريةٌ ، وأنَّ مبدأها هو الحقُّ ، ولا شيءَ غير الحقِّ ، وأنَّ قاعدتَها ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة : ١٠٥] . فالهدايةُ أولاً ، والهداية آخِراً : الهداية في القوَّة ، والهدايةُ في السِّياسة ، والهدايةُ في الاجتماع . فقل لي بحياتك ، وحياة إنجلترا : أيعابُ ذلك على المسلمين إلا بالألفاظ التي يَعيب اللِّصُّ بها أهلَ الدَّار ؛ لأنهم يُحْكمونَ في وجهه إقفالَ الباب . . . . ؟

قال : فَوجَم(١) الإنجليزيُّ حتَّى ذُهل عن نفسه ، وصاح : إذا كان هذا ؛ فلنتعصَّبْ ، فلنتعصَّبْ !

* * *

(١) « وجم » : سكت على غيظ .